© ٢٠١٣ مركز بحوث القرآن
جامعة ملايا، ماليزيا

المجلة العالمية لبحوث القرآن
المجلد ٣، العدد (٤)، يونيو ٢٠١٣م، ص٢٢٣-٢٥٤

من مظاهر التفسير الصوتي للقرآن الكريم

أ. د: خيرالدين سيب*

PHONETIC INTERPRETATION OF THE HOLY QUR'AN

ABSTRACT

This research re-explores the studies and research papers made on Arabic phonetics in depth and contemporary manner, especially where Qur'an is concerned. This helps to build up on what earlier grammarians and Qur'an interpreters have come up with as an attempt to establish a new methodology for interpreting the Qur'an. The new methodology would correspond to Islamic narrations and satisfies the mind based on phonetic theories pointed out by early linguists such as Ibn Jinni as well as contemporary European scientific studies. Thus, this study attempts to apply the phonetic theory in interpreting the Qur'an. It examines the following aspects: First: The meaning of phonemes in the Qur'an (it includes the meaning of consonants and vowels). Second: The meaning of syllables in the Qur'an (it includes six syllables). Third: The meaning of intonation, phonology and rhyme (i.e., fasila) in the Qur'an (it includes intonation as seen by early and late scholars and Qur'an reciters, phonology and rhyme). Finally, the conclusion draws some significant results of the research.

Keywords.*Phonetics, Quranic Interpretation, Intonation, Phonology.*

* مدير مخبر الدراسات الشرعية ورئيس شعبة الماجستير، تخصص التفسير بين القديم والحديث، جامعة تلمسان بالجزائر.

الملخص

يهدف هذا البحث إلى إعادة قراءة التراث اللسان العربي قراءة حديثة ومعاصرة – لا سيما ما تعلّق منها بالقرآن الكريم – تكمّل ما قام به النحاة والفسرون على مرّ الأزمان والدهور في محاولة لرسم معالم تفسيرية حديثة للنص القرآني المثالي، وتوافق النقل وترضي العقل وفق ما جاء من نظريات صوتية تأويلية أشار القدامى إليها إشارة عابرة منهم: ابن جني وأنصفتها الدراسات العلمية الغربية الحديثة فجاءت هذه الدراسة تطبيقا لنظرية الإيحاء الصوتي في القرآن وتناولت فيه المباحث الآتية: المبحث الأول: دلالة الفونيم في القرآن الكريم، ويتضمن دلالة الصوامت والصّوائت. والمبحث الثاني: دلالة المقاطع في القرآن الكريم، ويتضمن ستة مقاطع. والمبحث الثالث: دلالة النّبر والتنغيم والمفصل في القرآن الكريم، ويتضمن: النبر بين القدامى والمحدثين وعند القراء، والتنغيم، والمفصل الصوتي. والخاتمة وشملت نتائج البحث.

الكلمات الدالة: الفونيم، والصوامت، والصّوائت، النّبر والتنغيم والمفصل.

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ وبعد:

فوجب لصناعة البيان طرفان: عضوي طبيعي، وأخر اصطناعي. فأمّا الأوّل، فمحلّه جهاز التّصويت، الّذي خلقة الله عزّ وجلّ، في كل إنسان، وبصورة لا يختلف فيها بشر عن آخر، وأمّا الثّاني، فمحلّه الدّماغ، الّذي يحمل الدّلالات الفكرية لكلّ بشر، ويبقى الخلاف في كيفية قيام الصّلة، بين الصّوت والمعنى، في ذهن كلّ إنسان، وهل يختلف بين كلّ الجماعات اللّغوية؟ وهل من ضمنهم المتكلّم والمتلقّي؟ أو يمكن لهذه الجماعات

أن تشترك بعض دلالاتها، في بعض أجزاء المستويات الصّوتية، للمفردات والعبارات والتّراكيب و النّصوص؟

إنّ اختلاف الأنظمة الصّوتية للغات البشر، يوحي أنّ كلّ جماعة لغوية، تباين أختها في المجتمعات الأخرى، وإن كانت قد اشتبهت في أجهزتها النّطقية، كما أسلفنا بالذّكر. وأن اتّساق هذه الأنظمة الصّوتية في أجزائها، يعيّن عدداً كبيراً من المفردات والتّراكيب والنّصوص، ذات المعاني المعيّنة لها. واللّغة العربية بها أصوات، موزّعة على مختلف المدارج والأحياز، ممّا يحدث انسجاماً، واتّزاناً في هذه الأصوات، و هذا يحدث كذلك وظيفةً في تكوين المعنى(١).

يجنح بناء العربية إلى السّهولة والتّيسير، ونظامها قائم على مبدأ الخفّة، والنّأي على الاستثقال، والجهد المضني، وعسر النّطق، وتدافع الأصوات عند المخارج والأحياز. وإنّ الخفّة في العربية مدعاة لدوران كثير من أصواتها على الألسنة، والثّقل في أيّ مفردة مجلبة للإهمال والنّفور(٢). وتبيّن الدّراسات للأكاديمية الصّوتية الحديثة مدى الحرص العربي في إخراج كلّ صوت من موضعه الأنسب، جرياً على الوقع الّذي بنى العرب عليه لغتهم، وهو ما يعدّ نادراً في كثير من اللّغات البشرية؛ لاسيما تقسيم الأصوات على كامل تجاويف الفم "les fosses buccales" هو عامل يزيد بهاء هذه اللّغة.

سبب اختيار الموضوع:

تفتقر المكتبة العربية إلى الكتابات اللّسانية الحديثة فهي وإن وجدت؛ تظلّ ضئيلةً عند مقارنتها بنظيرتها القديمة؛ إذ نجد الباحثين يحاولون إيجاد المسوّغات للنّظريات الحديثة في التّراث اللّساني العربي. وانقسم هؤلاء في هذا بين شقّين متباينين: فمنهم من يرفض كلّ هذه المكتشفات اللّسانية الغربية الحديثة، ومنهم من انبهر بها انبهاراً سلخه عن ميراث سلفه. فقلّما نجد فريقاً يتوسّط أولئك، فيدفع عجلة ما تركه أسلافنا إلى متطوّرات العصر اللّساني الجديد.

---

(١) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، بيروت، دار الفكر، (د/ط) ٢٠٠٥م، ص ٢٥٠.

(٢) ينظر: الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمّد علي النّجّار، المكتبة العلمية، (د/ط) (د/ت)، ص: ٦٧.

ولعلّ أقدس ما يمكن أن تخدمه هذه المتطوّرات كتاب الله تعالى، الذي شغل بال النّحاة والمفسّرين، على مرّ الأزمان والدّهور، فلم يجدوا بعد ذلك سبيلاً آخر غير ما سلكوا من نحو وبلاغة، ولم يقدّموا للدّرس النّحوي والتّفسيري منهجاً جديداً، على الرّغم من أنّهم أقدر على ذلك وأكثر، وعلى الرّغم أيضاً من وفرة المادّة العلمية، والمنهج السّليم، وتنوّع المصادر، وملائمة العصر.

أهداف البحث: يهدف البحث إلى إعادة قراءة التّراث اللّساني العربي، قراءة معاصرة وجديدة؛ لاسيما ما تعلّق بالقرآن الكريم في محاولة لرسم معالم تفسيرية حديثة للنّصّ القرآني المثالي، توافق النّقل وترضي العقل، ووفق ما جاء به ابن جنّيّ من نظريات صوتيّة تأويلية أنصفها العالم الغربي في وقتنا المعاصر.

المنهج: اقتضت طبيعة المادة العلمية أن أتبع المنهج الوصفي في الدراسة مستعيناً بأداة التحليل والمناقشة، مع كتابة الآيات القرآنية برواية حفص عن عاصم وبالرسم العثماني، وإحالة المعلومات على أصحبها بأمانة علمية وتوثيق دقيق.

خطّة البحث: يتضمن البحث ما يأتي: توطئة وخاتمة وثلاثة مباحث: **المبحث الأول: دلالة الفونيم في القرآن الكريم** ويتضمن: دلالة الصّامت، ودلالة الصّائت. **والثاني: دلالة المقاطع في القرآن:** ويتضمن دلالة المقاطع (الثاني إلى السّادس). **والثالث: دلالة النّبر والتنغيم والمفصل الصّوتي في القرآن:** ويتضمن دلالة النّبر والتّنغيم والمفصل الصّوتي في القرآن.

أما الدراسات السابقة: فأهمها: بحث الصّوتيات عند ابن جنّي في ضوء الدّراسات اللّغوية المعاصرة: عبد الفتاح المصري: مجلة التّراث العربي، دمشق، أبريل/يوليو ١٩٨٤م- السّنة الرّابعة. والبناء التّشكيلي للفواصل القرآنية وأثره في الدّلالة: محمّد نجيب مغني صنديد: رسالة لنيل درجة الماجستير بجامعة تلمسان، الجزائر، ٢٠٠٦م. وظواهر التّشكيل الصّوتي عند النّحاة واللّغويين حتّى القرن الثّالث الهجري: المهدي بوروبة: رسالة لنيل درجة الدّكتوراه بجامعة تلمسان، الجزائر، ٢٠٠٢م. ومن مظاهر الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم وقراءاته: خير الدين سيب، الجزائر، جامعة تلمسان.

والأسلوب والأداء في القراءات القرآنية دراسة صوتية تباينية خير الدين سيب، دمشق، دار الكلم الطيب. وتقف بنا الدراسة الجديدة على الموافقات الصوتية وإيحاءاتها على بعض المعاني الخفية التي تزيد من توسعة المعنى وتفسير الآية القرآنية وإبراز لطائفها.

المبحث الأول
دلالة الفونيم[١] في القرآن الكريم

لقد سجّل المصنّفون، مختلف عادات العرب الكلاميّة، خاصّة ما تعلقت منها بالدّلالة الصّوتية للفونيم، وقد نقل إلينا ابن دريد (ت: ٣٢١هـ) عادة العرب في تسمية قبائلها وفق ما يستشعره العربي من دلالة اللّفظ عامّةً، والصّوت خاصّةً؛ فقال: "... فهذيل من الهذل، وهو الاضطراب، وقُضاعة من انقضع الرّجل عن أهله، إذا بعُد عنهم، ومن قولهم: "تقضّع بطنه إذا أوجعه"[٢] وعادة العرب أيضاً، تسمية الأبناء بأسماءٍ مستهجنةٍ لأعدائها، أو تفاؤلاً لنزول الضّرّ بهؤلاء؛ كغالبٍ وظالمٍ ومقاتلٍ، أو لترهيبهم كأسدٍ وأسامةٍ، وعبّاسٍ وليثٍ، وسمّت عبيدها بمسمّياتٍ حسنةٍ لأنفسهم[٣]. ونقل الأزهري (ت: ٣٧٠هـ) عن الخليل، فقال: "ألا ترى أن الحاكي، يحكي صلصلة اللّجام فيقول: صَلْصَلَ اللّجام، فيقال: صلْ يخفّف، فإنْ شاء اكتفى بها مرّةً، وإنْ شاء أعادها

(١) لفظ الفونيم مقابل للفظ الحرف، لما يميزه عن الثّاني، فهو الوحدة الصغرى في التّقسيم الصّوتي، فالفونيم أخصّ، وأدقّ من الحرف، الّذي الشّكل هو الكتابي للمنطوق، وهو أقل عددا في العربية. والصوت وهو مصطلح ثالث أكبر منه؛ فمن ذاك: حرفي النون والميم اللّذان تنوعا بين الإظهار والإخفاء والإقلاب والإدغام، وهو مقابل للمصطلح allophone. ينظر: مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، المغرب، الدّار البيضاء، دار الثّقافة، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م، ص: ١٥٨. وعبد الفتاح المصري: الصّوتيات عند ابن جنّي في ضوء الدّراسات اللّغوية المعاصرةمجلة التّراث العربي، دمشق، ١٥رجب/١٦شوال ١٤٠٤هـ الموافق أبريل/يوليو ١٩٨٤م، السّنة الرّابعة، ص٢٤٣.

(٢) الاشتقاق: ابن دريد، تحقيق: عبد السّلام هارون، لبنان، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١م، ص١٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٤، ٥.

مرّتين أو أكثر من ذلك؛ فقال: صلْ صلْ صلْ، فيتكلّف من ذلك ما بدا له"[١] إنّه أنموذجٌ من نماذج محاكاة العرب لتصوراتهم الذّهنية.

١- دلالة الصّوامت في القرآن الكريم:

يتظاهر لكثيرٍ أنّ العربية كأخواتها السّاميات، تولي العناية القصوى للصّوامت، أكثر من الصّوائت؛ والّتي لها أثرٌ كبيرٌ في المعنى، بالنّسبة للّغات الهندوأوروبية. وهناك من يقول: إنّ الأرومة السّامية، لا تضع أيَّ حسبانٍ لوضع الحركات (الصّوائت) على الصّوامت؛ إذ إنّ المفردات يمكن معرفتها من رسم الحروف، دون النّظر إلى وضع الحركات عليها[٢]؛ إلاّ أنّ هذا يظلّ نسبيّاً بالنّظر إلى العربية خاصّةً، وهي أكثر اللّغات حفظاً لخصائص اللّغات الشّرقية السّاميّة.

إنّ هذا المنطلق يوصلنا إلى أمورٍ لا يُستهان بأهميتها، فقد نجد في كثيرٍ من المناسبات أنّ النّحاة واللّغويين خاصّةً، والعلماء الّذين تناولوا قضايا الدّلالة عامّةً، ذكروا مناسبة الفونيم لمعنى المفردة المتواجد فيها، ولا يُعدُّ هذا من قبيل المصادفة.

وتظهر دعوة هذا ممّا لا تدعو للشّكّ والرّيبة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩ – ١١]. فالثّاء قفلةٌ "une coda" غوير بها النّغم، حتّى بلغت النّظر إلى دلالة هذا التّغيير، من النّاحية التّفسيرية، والزّمانية والمكانية، لفترة من حياة النّبي ﷺ.

وأمّا التّغيير النّغمي الدّلالي بالثّاء المهموسة بعد راءين مجهورين، فقد كان للتّغيير أن يتبعها براءٍ ثالثٍ، على تقدير قوله "فاجهر" موافقةً للنّغم؛ إلاّ أنّ هذا لا يخدم المعنى، ولا شكّ في هذا، ولا حتّى الإيقاع، إذ أقفل النّصّ القرآني السّورة رغبةً منه موافاتنا بنهايتها نغماً ومعنىً[٣]، ويفسّر الإقفال بالثّاء الرّقيق المهموس، النّاعم الخافت، وعدم

---

(١) تهذيب اللغة: الأزهري، تحقيق: عبد السّلام هارون، القاهرة، الدّار المصرية للتّأليف والتّرجمة، (د/ط)، ١٩٦٤م، ١/ ٤٦.

(٢) ينظر: فقه اللّغة، علي عبد الواحد وافي، مصر، القاهرة، سجنة البيان العربي، ط٦، ١٩٦٨م، ص ١٦.

(٣) ينظر: قواعد تشاكل النّغم في موسيقى القرآن، نعيم اليافي، مقال نشر في الموقع:
007. htm،16،16/turath15،dam. org/trath/15،http: //www. awu

توافره للرّاء المجهور ذي الرّصانة والقوّة. وعلى هذا، فهو غير موافقٍ لمراد الآية، إذ كان أمر الله تعالى لنبيه ﷺ التّحديث بالنّعمة، لا الجهر في عهد الدّعوة سرّاً[(١)]. ويفسّر هذا أنّ النّبي ﷺ كان يعيش عصر ضعفٍ، حين نزول السّورة؛ فقابل التّعبير القرآني زمن الضّعف بما يوافقه من ضعف صوت التّاء[(٢)].

وينكّتنا القرآن الكريم بما في النّاس من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ – ٦]، إذ تظهر السّورة موقف العياذ للاحتماء، ودلالة الاختفاء، والاستتار والاختباء لكل آيةٍ كريمةٍ، لتتعوّذ بربّ هذا الخلق الكبير المستترين تحت رحمته من عمل الوسوسة الخفيّة؛ والأخفى أضرّ وأخبث وهو كائنٌ، إمّا من الشّيطان رأس الجنّ المختفية الخانسة[(٣)]، وإمّا من الإنس وهو قائمٌ بالصّدور أخفى مضغةٍ للجنّ والإنس، ولعلّ ما يفسّر هذه الدّلالات صوت السّين المهموس الموافق لما تقرّر في الإطار العامّ للسّورة.

وتمثّله أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النّبأ: ١٦]، إذ هي جنّات الآخرة، كثيفة الشّجر، ذات الأغصان الملتفّة[(٤)]، كثرةً وتشعّباً، وشساعةً وانتشاراً، انتشار النّفس عند مخرج الفاء، ونظيره أيضاً ما يستشعره السّامع في حين اصطكاك أذنه بصوت الذّال من قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، إذ يتظاهر من تلاوة

---

(١) ينظر: البناء التّشكيلي للفواصل القرآنية وأثره في الدّلالة، محمّد نجيب مغني صنديد، الجزائر، ص:١٦٩.

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ص: ٢٤٣.

(٣) الخنس: الدّنس المستتر. ينظر: مقاييس اللّغة لابن فارس، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، بيروت، دار الفكر، (د/ط) ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، مادّة (خ ن س) ٢٢٣/٢. ونظيره الخنز: الدّنس الظّاهر. ينظر: المصدر نفسه، مادّة (خ ز ن) و(خ ن ز)، ١٧٨/٢، ١٧٩، ٢٢٢.

(٤) ينظر: الجلالين، المحلّي جلال الدّين محمّد بن أحمد (ت: ٨٦٤هـ) وتفسير الجلالين: السّيوطي، تعليق: أبي سعيد بلعيد الجزائري، الجزائر، دار الإمام مالك، ط١، ٢٠١٠، ص: ٥٨٢. و تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، السّعدي عبد الرّحمن بن ناصر، تقديم: محمدّ بن صالح العثيمين، تحقيق: محمّد فتحي السّيّد، ومصطفى الشّنّات، القاهرة، المكتبة التّوفيقية (د/ط) ١٩٩٦م، ص ١٠١٨.

الآية، ودون العلم بمعنى الفاصلة، أنّ العجل سمينٌ[١]، مناسبةً لاستطالة النّفس عند إصدار الذّال؛ وقد يتوقّع من هذا.

ويحتمل أمران: أحدهما فهو سعة كرم إبراهيم ﷺ ومنه جاءت سنّة الحفدة العرب، على منهج الجدّ، وهي السّجية الّتي لا تساورها الشّكوك؛ وهو عرفٌ عند الأنبياء عليهم السلام وإلاّ كان بذخاً، وأمّا ثانيهما فهي عظمة ضيفي إبراهيم عليهم السلام اللّذين يستأهلا سعة كلّ هذا الكرم.

ويمكن أن نرى هذا شاخصاً في قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. إذ يظهر هذا النّبي الكريم ﷺ في قمّة ظلمة القلب وسواده[٢]، وهو المعبرّ عنه بالغضب؛ والضّاد أوقع من الظّاء وتظهر ظلمة الظّنّ والرّيبة[٣] اللّذين كان الغضب سبباً فيهما لذا تقدّم عليها.

ويصوّر القرآن الكريم ذاك الظّلام المحكم، بعد إحكام ظلام الغضب. فانتبه يونس ﷺ أنّه كان من الظّالمين، الّذين جانبوا الهدى؛ وهو نقيض الظّلام والظّلم[٤]. وتظهر الآية الكريمة رباعيةً صوتيةً متوافقةً دلاليّاً (مغاضبا–ظنّ–الظّلمات–الظّالمين) تضامّت[٥] فيما بينها، ثمّ بمفردة الغمّ الّتي في قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ

---

(١) ينظر: الفتح القدير،الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير، الشّوكاني، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم، (د/ط) (د/ت) ٥٠١/٢، وحاشية الصّاوي، الصّاوي، بيروت، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٤م. ٢٧٦/٢.

(٢) ينظر: الصّحاح، الجوهري: ١٩٧٨/٥. ولسان العرب، ابن منظور، (د/ت). مادّة (ظلم) ٢٧٥٩/٤.

(٣) ينظر: ابن منظور: المصدر نفسه، مادّة (ظنن) ٢٧٦٢/٤.

(٤) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس ، الزّبيدي ٢٨٢/٤٠.

(٥) يسمّيه تمّام حسّان (التّضامّ) ينظر: العربية مبناها ومعناها، الدّار البيضاء، دار الثّقافة، ط١،١٩٩٤م. ص: ٢١٦، ٢١٧، ٣٣١.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. كما تضامّت ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بـ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] علامة التّوحيد.

ويوحي مؤّشر الدّلالة، في كثيرٍ من الأحايين إلى مطابقة أصوات الاستعلاء[١] لما في معنى الآية، ودلالتها على الاستعلاء، أو لما يومئ لهذا؛ ومنه شاهد الرّحمن في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرّحمن: ٦٦]، إذ تظهر قوّة الضّخّ وإن استفلت العين الضّاخّة، وكأنّه يُرى بالعين الشّاخصة علو الماء وقمّته[٢]؛ ويُفسّر هذا صوتيّاً باستعلاء الخاء في النّضخ، مقارنةً بنظيره النّضح[٣]، ويعضده ما في الحجّ من قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحجّ: ٢٩]، قد تبيّن أنّه أعتق من كلّ جبّارٍ[٤]، فعلا عليهم جميعاً، وأعتق من غرق الطّوفان زمن نوحٍ[٥]؛ فهو أوّل بيتٍ بني، ومن طاف به عُتق[٦].

وتُظهر جميع التّفاسير أنّ مفردة ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ لعلوّ الجبارين وغطرستهم، وعلوّ موج الطّوفان، أو إغراق زمنه؛ وهي مشتقّةٌ من عتق الرّقبة، أعلى عضو، في جسم الإنسان[٧]. فوافق استعلاء القاف، معاني هذه الإيحاءات، الّتي تشير، إلى معنى العلوّ والرّفعة، وما يدور في فلكها.

---

(١) هي: غ خ ق ض ص ط ظ. ينظر: ابن يعيش: شرح المفصّل ١٢٩/١٠. والمهدوي: شرح الهداية تحقيق: حازم سعيد حيدر،. ٧٨/١.

(٢) ينظر: ابن فارس: مقاييس اللّغةمادّة(ن ض ح، ن ض خ)ج: ٥، ص: ٤٣٨. و: مجمل اللّغةتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان،. ٨٧١/٣.

(٣) ينظر: المصدران والصّفحات.

(٤) ينظر: التّنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس، الفيروزأبادي، ص: ٣٣٥.

(٥) ينظر: معالم التّنزيل، البغوي ٢٤١/٣. وفتح القدير: الشّوكاني ٤٥٥/٣.

(٦) ينظر: الفيروزأبادي: المصدر نفسه، ص: ٣٣٥.

(٧) ينظر: كتاب العين، الخليل، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السّامرائي،. مادّة(ع ت ق) ١٤٦/١.

ومثيله ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحجّ: ٤٠]. إذ تُبّين المعاجم أشكال هذه الأبنية، في ارتفاع صوامع الرّهبان الشّاهقة في الطّول، وشموخ صلوات المجوس العالية، وقِصَرِ بِيعِ اليهود الدّانية من الأرض[١]. ولعلّ هذا متّضحٌ دون عناءٍ، بالنّظر إلى ضمّ المفردتين الدّالتين على الارتفاع، للصّاد المستعلي في حين أن لفظ (بِيَعٍ) ضامٌّ للياء المستفل الدّالّ على القصر، والدّنو من الأرض.

٢- دلالة الصّوائت في القرآن الكريم:

يطالعنا التّعبير القرآني في مناسباتٍ عديدةٍ، بموافقة أصوات الخفاء[٢] لمعنى التّطريب، الصّادر عن النّفس، فينعكس ذلك في هيئةٍ صوتيةٍ. وهو ما نصادفه في شعر العرب، في منحى هذه الدّلالة، إذ يختم الشّعراء أبياتهم بهذه الأصوات، أوصالاً للأروية الّتي بنوا عليها قصائد، إذ لا تصلح أروية[٣]؛ من ذاك قول جرير:

مَتَى كَانَ الخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ سُقِيتِ الغَيْثَ أَيَّتُها الخِيَامُو[٤]

وقول النّابغة:

أَزِفَ التَّرحُلُ غَيرَ أَنَّ رِكَابَنا لمِا تَزلْ بِرِحالِنا وَكَأَنْ قَدِنْ[٥]

وتبّين عند رصد ذلك أنّ العرب لما وظّفوه صوتيّاً، إنّما جاروا ما تعلّق بأنفسهم، وحاكوه قولاً ودلالةً. ولعلّه ما يجعل بناء الأمر على هذا المعتقد؛ إذ لم يعدُ كلام الله تعالى قولٌ من شعرٍ ونثرٍ في المستويات اللّغوية لاسيما الصّوتي الدّلالي، وتبّين أنّه متى تمّ

---

(١) هو الظّاهر من بنائها. ينظر: التّنوير المقباس، الفيروزأبادي ص: ٣٣٧.

(٢) هي: (و ا يه ن السّاكنتين). ينظر: الكتاب، سيبويه، ٤/٤٥٤. والجوانب الصّوتية في كتب الاحتجاج للقرآت، عبد البديع النّيرباني: ، ص: ٨٣.

(٣) ينظر: الوافي في العروض والقوافي، التّبريزي، تحقيق: فخر الدّين قباوة، ص: ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧.

(٤) لم يرو بوصل الرّوي. ينظر: ديوان جرير، لبنان، بيروت، دار بيروت، (د/ط) ١٩٨٦م. ص: ٤١٦.

(٥) ورد البيت في الدّيوان على: أَفِدَ التّرحّل غير أنّ ركابنا لَمّا تزّلْ بِرِحالِنا وكَأَنْ قَدِ. ينظر: ديوان النّابغة الذبياني ص ٣٨.

رصد هذه الحالات الشّاهد في آي القرآن الكريم وافقت أصوات الخفاء[١] المعنى العّام للآية، الضّامّة لها خاصّةٍ الألف من ذاك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠ – ١١]. كلّ ذلك الهول والكرب اللّذين روّعا مدينة رسول الله ﷺ وأهلها لما تداعت عليها الأحزاب، فاستجابت لها بعض القلوب وظنّت بالله تعالى الظّنون، وتصوّرت ملامح بعض الوجوه وحركات هذه القلوب، واتّضحت معالم بعض العقول، ومسار بعض المذاهب، واختلاف بعض التّصوّرات، فزاد زلزال المؤمنين على الرّغم من رسوخ الإيمان إلاّ أنّ الهول كان أكبر وأشدّ[٢].

ولكن عند معاينة الألف في لفظ ﴿ٱلظُّنُونَا﴾ يتراءى أنّها تكفي رسم هذا الموقف، وهذا المشهد؛ إذ زادت في استغراق (أل) للمبالغة أن يظنّ النّاس كلّ ظنٍّ، أو زادت في عهدتيها، فكان ظنّ المؤمن خيراً، وظنّ الكافر شرّاً، وتبّين –على كثرة الظّنون– أنّ فيهم من أخطأ الظّنّ[٣]. وزادت في رسم ملامح الخوف في وجود الظّانين المنافقين، كما حددّت مذهب هؤلاء، وزادت في كرب المؤمنين وحزنهم على ابتلائهم في دينهم.

ويعضد هذا، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦ – ٦٧]، إذ زادت الألف المحقّقة في لفظ ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ في التّحسّر، والأماني الضّائعة الخائبة، وارتسم ملمح الحزن الّذي خلج الأنفس، بعدما عاينوا العذاب حقيقةً، والفزع ظهارةً، وزَكَمَ الحزن على العذاب والفزع، فزاد هذه الأنفس غمّاً وكرباً وهمّاً، حاكته صوتاً، في استغراق طول زمن الألف المتمادّ امتداد هذا الحزن.

---

(١) ينظر: الكتاب، سيبويه ٤/٣٣٥، ٣٣٦.

(٢) ينظر: التّنوير المقباس، ابن عباس ص: ٤١٩. وصفوة التّفاسير، الصّابوني ٢/٥١٤.

(٣) مفاتيح الغيب، التّفسير الكبير، الرّازي،قدّم له: هاني الحاجّ: م ١٣، ٢٥/١٧٤.

وجاء في الإنسان أيضاً زيادة الألف، على غير ما عهدته العرب من باب غير المصروف، فورد لفظ ﴿قَوَارِيرَا۠﴾، من قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٥ – ١٦]، مصروفاً بزيادة الألف[١]. ولعلّ تفسير هذا زيادة تقدير حال بهجة هؤلاء، الفرحين بنعيم الله تعالى في الجنّة، أو زيادة ترغيبه تعالى في الجنّة دار النّعيم الخالد، والأوّل أرجح وأقرب[٢]. والنّكث في الآيتين أنّ التّعبير القرآني قد جاء بمخالفةٍ صوتيّةٍ مقرّرة في زيادة الألف، بمخالفة العرب في أصل القوارير إذ كان أصلها الرّمل لا يرى مشروبها وهي في الجنّة من فضّة.

وقد تراءى في زيادة الألف بهذه الشّواهد موافقتها للأحوال النّفسية الّتي تجوب صاحبها، من حزنٍ وفزعٍ وفرحٍ، وهو سلوكٌ صوتيٌّ، وعهديٌ عند العرب، في زيادتها في التّطريب، لاستغراق النّفس عند هيئةٍ شعوريّةٍ معيّنةٍ، لاسيما الحزن منها؛ من ذاك الحزن والفزع عند امرئ القيس، في قوله:

أَلاَ يـا عَـينُ بَكِـيّ لي شَـنِينَا وَبَكِّـي لي المُلُـوكَ الـذَّاهِبِينَا[٣]

ونظيره ما ضمّه النّظم القرآني، في هاء السّكت، الموقوف عليها؛ نحو ما تقرّر في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥ – ٢٩]. إنّه موقف التّحسّر الممتّد، وطرب اليأس وسياق التّفجّع ويوحي إلى الأثر الذّي تركه في الأنفس بإيقاعٍ رخيٍّ ونغمةٍ يائسةٍ للهجةٍ بائسةٍ، وسكتاتٍ توحي إلى الموقف

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، الزّجاج، تحقيق: عبده شلبي، لبنان، بيروت، (د/ط) (د/ت)، ٥/٢٦٠.

(٢) ينظر: التّنوير المقباس، ابن عبّاس: ص: ٥٧٩. وصفوة التّفاسير، الصّابوني، ٣/٤٩٤.

(٣) ديوان امرؤ القيس وملحقاته بشرح أبي سعيد السّكري تحقيق: أنور عليان أبو سويلم ومحمّد علي الشّوابكة، ص: ٦٤٦.

الفجيع الذّي يمتدّ على طول الزّمن الذّي يقتضيه صاحبه يوم الحساب[١]. وتبّين أنّ زيادة هاء السّكت موافقةٌ للحالة الشّعوريّة لهؤلاء وإيحاءُ صوتٍ لامتداد زمن هذا الحزن، وهذا النّدم الذّي رافق أهل جهنّم.

المبحث الثاني
دلالة المقاطع في القرآن الكريم

تتداخل موسيقى البناء المقطعي للقرآن الكريم، ويتّسق إيقاعه في ملمحٍ من ملامح نغمه، وتنتظم في جميع أجزائه، وكلمه وأصواته، وفق تناسب بين صنف النّغمة وصفتها، وبين الدّلالة في الفكرة، أو الموضوع، أو المشهد، الّذي تحويه طيّات الآي وفواصلها.

وتقتضي البنائية المقطعية الانتقال من وقع الإفراد، وهو ما كان في تكرار الأصوات، وتواترها في الآي إلى الأكبر تركيباً، متضامّةً متداخلةً فيما بينها، تؤدّي معنىً؛ وبه قال ريمون الطحّان: "يتألّف التّنظيم الصّوتي في عدد محدودٍ من الأصوات، ولا يستعين إلاّ بوحداتٍ صوتيّةٍ فريدةٍ، تكون مجتمعةً جملةً، ترتبط أجزاؤها بعلاقاتٍ مشتركةٍ، ووشائج معيّنةٍ، لا تظهر للعين المجرّدة، بل يراها العقل، تنشأ هذه الوشائج من تجاور الأصوات ومواقعها، وكونها في هذا الحرف أو ذلك، وإمكانيات وجودها الفعليّ أو النّظريّ في هذا المقطع، أو ذلك، وكثرة ورودها وقلّته، ودرجة استعمالها وتواترها، وندرته وقابلية التّحقيق بعض الأصوات، وبروزها إلى حيّز الوجود، وكيفيّة تداخلها في التركيب والطّوارئ، الّتي تطرأ عليه من جرّاء عمل الصّوت"[٢] وقصده ههنا تتابع الأبنية اللّغوية، وما يكون منها من نسيج صوتيّ، وتجانسه وانسجامه.

---

(١) ينظر مشاهد يوم القيامة، سيّد قطب، مصر، القاهرة، دار الشّروق، ط١٦، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص: ٢١٥. والتّصوير الفنّي في القرآن. ص: ١٠٦.

(٢) الألسنية العربية، ريمون الطّحّان، لبنان، بيروت، دار الكتاب اللّبناني، ط٢، ١٩٨١م، ١/٣١، ٣٢.

وليس سهلاً في حالاتٍ، ضبط المعالم الدّلاليّة للكلم، من حيث الابتداء والانتهاء، وتقسيمه إلى مقاطع، ولعلّ مردّ ذلك، أنّ هدف الكلم العربيّ، يقوم إلى أسس، بلغت غايةً في التّعقيد، في حالته المجرّدة، من أصواتٍ مقطعيّةٍ، مرتّبةٍ واحدةً بجانب الأخرى(١).

وعلى هذا يكون السّبيل إلى تحديد معاني المقاطع ودلالاتها، بالاستناد إلى المقاطع الأكثر دوراناً، في كلم الآي وفواصلها؛ لإبراز القيمة الصّوتيّة، ولا يكون معيار القياس فيه في شيءٍ، إنّما الذّوق الفنيّ والحسّ كفيلان ذلك، بالتماس الدّلالة الإيقاعية والجمالية لهذه المقاطع المتشاكلة.

١- دلالة المقطع الأول: تتعلق أحوال المقطع الأول في غالبيتها بمعرفة أواخر الكلم في حدّ علم الإعراب وتغيير مباني الكلم، لا سيما الأفعال إذ يحدّد الأزمنة المرادة ولا يكون له تأثير واضح في الصوت، واستثني المقطع الأوّل"cv"لغلبة مجيئه حشواً.

٢- **دلالة المقطع الثّاني**: كثيراً ما يطابق المقطع الأول المقطع الثّاني الطّويل"cvv"الدّلالة على الطّول، في معناه العامّ للآي الضّامّة لهذا النّوع من المقاطع الصّوتيّة؛ من ذاك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وَ/لاَ/تَمْ/شِ/فِلْ/أَرْ/ضِ/مَ/رَ/حًا/إِنْ/نَ/كَ/لَنْ/تَخْ/رِ/قَلْ/أَرْ/ضَ/ وَ/لَنْ/تَبْ/لُ/غَلْ/جِ/بَا/لَ /طُو/لاً (٢)، فالآية من جملة آي النّواهي والأوامر في السّورة؛ والمرح التّكبّر والخيلاء من دوال التّكابر، في تعظيم النّفس، والتّمادّ في الفخر بها(٣).

وأمّا المدّ في ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ فدالٌّ على الطّول؛ وعلى قدر طوله سموّاً، على قدر خرقه الأرض أضعافاً. وقد تأكّد ذلك بالفاصلة ﴿طُولًا﴾ بمقطعيها الطّويلين، صوتاً ومعنىً؛ إذ توضح الآية أنّ للجبال قدرٌ في الأرض، وقدرٌ في السّماء، طولاً وشموخاً، إلاّ أنها

(١) ينظر: المرجع نفسه،١/٧٠. وعلم الأصوات العامّ، بسّام بركة: لبنان، بيروت، مركز الإنماء القومي، (د/ط) ١٩٨٨م، ص: ٩٧.

(٢) الآية في ٢٩ مقطعاً: ١٣(١)، و(٢)، و١(٣).

(٣) ينظر: التّنوير المقباس، الفيروزأبادي ص: ٢٨٥. وتفسير الجلالين، السّيوطي: ص: ٢٨٦.

تظلّ هامدةً، فكيف للمرء هذا الخيلاء كلّه، وهذا التّكبر، وهو على ما هو من حقارة الجسم، وقلّة البدنّ[١]. ونظير هذا الّذي ذكرنا، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فالمقاطع الّتي من النّوع الثّاني، كانت أساساً، دالّةً على معنىً من جنس المقطع الطّويل في طوله، وإن كان الغرض في ذلك على الخلاف، حسب كلّ مقامٍ.

وأولاها ﴿ وَلَا ﴾ النّاهية، وما فيها من استدامة الحال زمناً طويلاً غير محدودٍ؛ وقد تدلّ ﴿مَا﴾ النّكرة المبهمة، على هذا أيضاً[٢]، للزّيادة في الشّيء، والمدّ فيه حكماً. وقد يكون المدّ في ﴿ وَٱلْفُؤَادَ ﴾ لدلالة التّمنيّ[٣]؛ وهو المعروف في طلاّته، وجارٍ في سعة خياله.

٣- دلالة المقطع الثّالث:

لا يختلف المقطع الثّالث"cvc"عن المقاطع قلّةً، في تواتره في الآي القرآنية، فهو ثاني المقاطع وروداً، بعد المقطع المديد الرّابع"cvvc"؛ ولا يختلف دلالةً عمّا فيها من صفاتٍ صوتيّةٍ، الّتي توحي إلى قيمةٍ تعبيريّةٍ للآي، ومنها الفاصلة الّتي عند طرفها. فالمقطع الثّالث مقطعٌ ينقطع عنده النّفس بإقفاله، فيكون بذلك دليلاً على معناه الرّئيس، في دلالة الانقطاع أو التّقطّع؛ وتبقى الأغراض الثّانوية، أغراضاً يُوجّه بها مسار الآي.

ولعلّ ما يمثّل لهذا، قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ [البلد: ٤، ٥]. لَ/قَدْ/خَ/لَقْ/نَا/إِنْ/سَا/نَ/فِي/كَ/بَدْ- أَ/يَحْ/سَ/بُ/أَن/لَنْ/ يَقْ/دِ/رَ/ عَ/لَيْ/هِ/أَ/حَدْ. إذ حوت الآيتان دلالة الانقطاع، في معنى المكابدة الّتي يواجهها الإنسان في حياته[٤]، والصّراع المنقطع على فتراتٍ، والمشقّة

(١) قد يكون هذا تفسير سيّد قطب، ينظر: في ظلال القرآن، ٢٢٢٨/٤.

(٢) ينظر: التّبيان في إعراب القرآن، العكبري، ٢٦٧/١.

(٣) ينظر: أوضح المسالك، ابن هشام، ٩٥/١.

(٤) ينظر: التّنوير المقباس، الفيروزأبادي ص: ٥٩٤. وتفسير الجلالين، السّيوطي ص: ٥٩٤.

الّتي تلي أختها؛ فما إن يعتاد الإنسان على شيءٍ حتّى يلقى صعباً آخر، فيعتاده ويألفه، ثم آخر، إلى أن يُسلم الرّوح. والمكابدة تكسب المرء القوّة بعد ضعفٍ، ويزداد ذلك حتّى يخيّل إليه أنّه غالبٌ؛ على إطلاق الحال. ويريه الله ﷻ أنّ ذلك على غير ما يرى، فينقطع ذلك الجبروت، وذلك الخيلاء، في لحظةٍ[1].

ولعلّ تأويل هذا صوتيّاً أيضاً، صوت الانفجار في همزة الاستفهام، لانفصال الوترين بعد التصاقهما، فينقطع شدّ الهواء. ويقابل المقطع الثّالث المعنى الدّال على ذلك، في الفاصلة ﴿ أَحَدٌ ﴾ ؛ وعلى هذا يكون اللّفظ نفسه سبباً في انقطاع جبروت الغافل.

وقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العلق: ١ – ٢]، اقْ/رَأْ/ بِسْ/مِ/ رَبْ/بِ/كَلْ/ ل/ذِي/خَ/لَقْ– خَ/لَ/قَلْ/إِنْ/سَا/نَ/مِنْ/ عَ/لَقْ. فالمقطع وإن لم يدل على معناه، قد يُتُوُصِّل إلى ذلك بالتّبصّر، والحكمة في نزول القرآن كلّه؛ ولاسيما أنّ الآيتين أوّل ما نزل من كتاب اللهﷻ[2]؛ فيكون ذلك بدايةً، وإيذاناً لقطع حياةٍ قَوْمُها فوضى، لا سراة لهم، وأمراً لعهدٍ جديدٍ كلّه تحضّرٌ وتمدّنٌ، وفكرٌ زاهرٌ بكتابٍ أوجده الله ﷻ في الأزل، يحكم به البشر، يحوي العلم، والأحكام والأوامر. ولعلّ ما يؤوّل الدّلالة على القطع، المقطع في فعل الأمر ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وفعل الماضي ﴿ خَلَقَ ﴾.

٤– دلالة المقطع الرّابع:

يشتدّ تواتر المقطع الرّابع، في الفواصل القرآنية، بنسبة ٧٣%، لما فيه من صفاتٍ، تؤهّله لذلك؛ فمن ذاك أنّه مقطعٌ مديدٌ، مقفلٌ بصائتٍ: المديد المفتوح(ص ح ح) + ص. وقد يدلّ المقطع الثّاني والرّابع، على الطّول والتّمادّ لتوافر صفات الحركة الطّويلة، الّتي يحويانها، فدلّت القيمة التّعبيريّة الإيحائية، على المعنى الذّي من جنسها، في الإطار العامّ للآية؛ وقد تختلف الأغراض الفروع، الّتي يمثّلها الخطاب. وإن كان المقطع الرّابع

---

(١) ينظر: فتح القدير، الشّوكاني ٤٦٢/٥. وفي ظلال القرآن، سيّد قطبو: ٣٩٠٩/٦، ٣٩١٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، سيّد قطب، ٣٩٣٧/٦.

من الجنس الثّاني، ولا يخالفه دلالةً، فهذا لا يعني ألاّ يزيد عليه معنىً، لزيادة صامت الإقفال[١]؛ ويكون ذلك حسب الخطاب القرآني، الواقعة فيه الفاصلة الممطول مقطعها، ويمكن أن نمثّل لها بما يأتي:

أ. ما وقع في خطاب الذّمّ:

لم يجئْ خطابٌ ذمّ الكافرين علناً من أوّل الآية إلى فاصلتها، إلاّ في موضعين؛ أوّلهما قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التحريم: ٧] يَـا/أَيْ/يُ/هَـلْ/لَ/ذِي/نَ/كَ/ فَ/رُوا/لاَ/تَـعْ/تَ/ذِ/رُ/يَـوْ/مَ/إِنْ/نَ/مَا/تُجْ/زَوْ/نَ/مَا/كُنْ/تُمْ/تَعْ/مَ /لُونْ[٢]. الظّاهر في الآية أنّها ابتدأت بمدّ النّداء، لزيادة في ذمّ الكفّار، الّذين كفروا بمحمدٍ ﷺ والقرآن الكريم، يوم الخزي الأعظم، فلا يقبل من أحدهم اعتذارٌ[٣]؛ لما جاءوا به من كبائر الأمور في دنياهم، فكان ذلك عملاً مشاناً، ومكراً مداناً. وقد قابل المقطع الطّويل في الفاصلة المعنى صوتيّاً، كما قابله المدّ في النّداء.

ب. ما وقع في خطاب الكرامة:

وقع المقطع موقعاً لزيادة معنى الكرامة؛ في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٦]، ادْ/خُ/لُو/هَا/بِ/سَ/لاَ/مِنْ/آ/مِ/نِينْ. فالدّخول دخول الجنّة دار الخلود الممتادّ زمنه، والسّلام التّحيّة أو السّلامة، والنّجاة الأبديين، والأمن أمن من الموت والزّوال؛ إذ يعيش المقيم فيها زمناً طويلاً غير محدودٍ، وإلى أجلٍ غير معروفٍ[٤].

---

(١) الزّيادة في البناء، زيادةٌ في المعنى. ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزّركشي، ت: محمّد أبو الفضل إبراهيم ٣/٢٥.

(٢) الآية في ثمانية وعشرين مقطعاً: ٠٩(١) و٠٧(٢) و١١(٣) و٠١(٤).

(٣) ينظر: التّنوير المقباس، الفيروزأبادي، ص: ٥٦٠. وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير م: ٢، ٤/١٠٧.

(٤) ينظر: الفيروزأبادي: المصدر السابق ص: ٢٦٤. وتيسير الكريم الرّحمن، السّعدي ص: ٤٥٧.

ج. ما وقع في خطاب الإهانة:

وقع المقطع الشّاهد أيضاً موقعاً لزيادة معنى الإهانة، التّي يختلف معناها عن الذّم؛ ولعلّ ما يمثّل لذلك، قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٤ – ٣٥]. قَا/لَ/ فَاخْ/رُجْ/مِنْ/هَا/فَ/إِنْ/نَ/كَ/رَ/جِيمْ-وَ/إِنْ/نَ/ عَ/لَيْ/كَلْ/لَعْ/نَ/ةَ/إِ/لَى يَوْ/مِدْ/دِينْ. فالمدّ الّذي في ﴿ قَالَ ﴾ دالٌّ على عظمة الله تعالى عائدٌ إليه الضّمير، وضمير ﴿مِنۡهَا ﴾ عائدٌ على الملائكة؛ وقيل: الكرامة الأبديّة، والرّحمة الّتي كان ينعم فيهما. والمدّ الّذي في ﴿رَجِيمٞ ﴾ دالٌّ على كبر اللّعن والطّرد من الرّحمة[1]؛ وهو المقرّر في قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ [هود: ١٠٧]، واللّعنة من الخلائق والملائكة كلّهم. وأمّا المدّ الّذي في ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ لأبعد غايةٍ زمناً، يضربها النّاس في كلامهم[2].

د. ما وقع في خطاب التّهكّم:

التّهكّم والاستهزاء بالمخاطب وقد كثر المقطع الرّابع، وذلك في آي هذا الخطاب؛ ويمثّل له بما في الدّخان من قوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدّخان: ٤٩]. ذُقْ/إِنْ/نَ/كَ /أَنْ/تَلْ/عَ/زِي/زُلْ/كَ/رِيمْ، والآية خطابٌ لأبي جهل الّذي قتله الله تعالى في بدرٍ، وقد بلغ التّهكّم مبلغاً كبيراً؛ فالأمر على نقيض الكرامة للمبالغة في الهزأ[3]. وقد قابل المدّ في لفظ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ﴾ المدّ الّذي في الفاصلة، لزيادة المبالغة في التّهكّم.

هـ. ما وقع في خطاب الاعتبار:

الاعتبار خطابٌ يلي الهلاك، بعد النّصح، وقد ورد كثيراً في قصص الأنبياء، لما نصحوا لأقوامهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ

(١) ينظر: الفيروزأبادي: المصدر السابق ص: ٢٦٤. وتيسير الكريم الرّحمن، السّعدي ص: ٤٥٦.

(٢) ينظر: المصدران والصّفحتان.

(٣) ينظر: الكّشاف، الزّمخشري، ١٨٣/٤. والتّفسير الكبير، الرّازي م: ١٤، ٢٢٣/٢٧.

﴿رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]. الظّاهر في الآية، ذلك الأسف الكبير البين في المدّ، من قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿وَقَالَ﴾ وفي يا النّداء وفي ﴿رِسَالَةَ﴾ في حديثه عن النّبوّة. وتظهر نبرة الخذلان في المدّ أيضاً، في لفظ ﴿وَلَٰكِن﴾، ويُستدلّ منه ملمح العناد، وكرههم الصّلاح والنّصح[1]. وقد كانت دلالة الاعتبار من وراء هذا، أكبر من الأسف والتّحصّر.

٥- دلالة المقطع الخامس:

يقلّ هذا المقطع المنتهية به الفاصلة، مقارنةً بالمقاطع الأخرى، وعلى الجملة، فإنّنا لا نجد هذا في طوال السّور أو المئين أو الوسائط مقطعاً أخيراً لفواصلها، إذ يكثر استعماله في قصار السّور؛ لاسيما المكّيّ منها، لأنّه أشبه بالمقطع الثّالث لكونه أخيراً في رءوس الآي. والشّبه بهما كائنٌ في البنية الصّوتية للمقطعين؛ إذ إنّ المقطع الخامس مقطعٌ ثالثٌ، وصامتٌ زائدٌ: المقطع الخامس (ص ح ص ص)= المقطع الثّالث(ص ح ص)+ص.

والشّبه أيضاً أنّ المقطعين أصلٌ في الأبنية العربية؛ لاسيما في الكلم الموقوف عليه[2]، والفواصل من هذا السّبيل. ويبقى السّؤال شاخصاً، إن كان هذا الشّبه في الدّلالة أيضاً، كما هو في الشّكل.

والظّاهر على دلالة المقطع الخامس، أنّه متى وُجد مقطعاً أخيراً موقوفاً عليه في فواصل الآي، فهو دليل انقطاع الأمر، أو تقطّعه، ولكن لزيادة أمرٍ آخر تماماً كزيادة الصّامت، على المقطع الثّالث. ويمثّل له بما جاء في الطّارق؛ من قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١١ – ١٤] وَسْ/سَ/مَا/ءِ/ذَا/تِرْ/رَجْعْ /وَلْ/أَرْ/ضِ/ذَا/تِصْ/صَدْعْ/إِنْ/نَ/هُ/لَ/

(١) ينظر: الكّشاف، الزّمخشري، ١٧٢/٢، ١٧٣. والتّفسير الكبير، الرّازي م: ٧، ١٤٧/١٤، ١٤٨.

(٢) ينظر: المنهج الصّوتي في البنية العربية، عبد الصّبور شاهين، القاهرة، مؤسّسة الرّسالة، (د/ط) (د/ت) ص: ٥٥، ٥٦.

قَوْ/لُنْ/فَصْلْ/وَ/مَا/هُ/وَ/بِلْ/هَزْلْ. تدلّ المقاطع الأربعة لهذا النّوع الأخير، على معنى الزّيادة الّتي تلحق الأمر في الآي، إضافةً إلى معنى الانقطاع. ويظهر ذلك في البناء الصّوتيّ لفواصل الآي، الّتي سبقت هاته الآيات الأربعة؛ إذ كان بناؤها على المختومة بالمقطع الثّالث، وكأنّ البناء قد انقطع وصار إلى بناءٍ آخر يشبهه، ويزيد عليه. وكذلك المعنى في الآيات هذه، إذ كان انقطاع من ذكر الإنسان، وهو سبب الخلقة الطّبيعيّ؛ ومن الخلقة ذاتها إلى ما هو الأكبر منه وأزيد، وهما السّماء الّتي بها الماء المنهمر، والأرض موطن النّبت[١]. قد أقسم الله تعالى بهذا كلّه، دلالةً على الشّدّة، والنّفاد والجزم، على أنّ القرآن الكريم قول الله تعالى لفصل الحكم، الّذي لا يأتيه الباطل[٢].

ونظيره ما في الفجر، من قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ١ – ٤] وَلْ/فَجْـرْ/-وَ/لَ/يَـا/لِـنْ/عَشْـرْ-وَشْ/شَفْ/عِ/وَلْ/وَتْرْ-وَلِ/لَيْ/لِ/إِ/ذَا/يَسْرْ. فقد دلّ المقطع الشّاهد على المعنى الّذي في الآي، الّتي سبقت من الزّيادة في الأمر، إضافةً إلى دلالة التّقطّع الّتي يحويها؛ فقد يكون القسم في الآيات الأربع، دالاً على القّطع والنّفي والجزم، لأمر ما الله ﷻ رائده، في إيضاح القوّة الإيمانيّة الصّحيحة لدى المؤمن[٣].

وأمّا المعنى المزاد في هذا، فهو ما يكون،ممّا يجيء بهذا القسم، في عظمة الشّيء المقسوم به، وكلّها كذلك: فالفجر فجر يوم النّحر، واللّيالي العشر من أوّل ذي الحجّة، والشّفع يوم عرفة، والوتر أيّام التّشريق الثّلاث، واللّيل الّذي يسري ليلة المزدلفة[٤]. ودلّ على هذا كلّه ما تلت الآيات هذه؛ من قوله تعالى ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]، فهذه الأمور ولعظمتها، لا تدرك إلاّ بجزم العقل.

٥– دلالة المقطع السّادس:

---

(١) ينظر: التّفسير الكبير، الرّازي م: ١٦، ١٣٣/٣١. والتّنوير المقباس، الفيروزأبادي: ص: ٥٩١.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤، ٢٣٦/٨. في ظلال القرآن، سيّد قطب ٣٨٨٠/٦.

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرّحمن، السّعدي ص: ١٠٣٩. وفي ظلال القرآن، ٣٩٠٢/٦.

(٤) ينظر: التّنوير المقباس، الفيروزأبادي ص: ٥٩٣. وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤، ٢٤٨/٨.

لم يأتِ المقطع السّادس"cvvcc"المعهود أنّه للوقف؛ إلاّ في سورة الرّحمن؛ من قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩]فَ/يَوْ/مَ/ئِ/ذنْ/لا/يُسْ/أَ/لُ/عَنْ /ذَنْ/بِ/هِ/إِنْ/سنْ/وَ /لا/جَانّْ، إذ جاءت الفاصلة على ﴿جَآنٌّ﴾ وهو أبو الجنّ، وأُريد خلفته، لتكثيف معنى الإغراء في سمات الكافرين يوم القيامة[١]. وقد زاد المدّ في هذا المعنى، وقابله بشيءٍ من جنسه، في دلالة الاستغراق للجنّ كلّهم.

المبحث الثالث

دلالة النّبر والتنغيم والمفصل في القرآن

١- دلالة النبر: النبر بين القدامى والمحدثين

كثيرا ما استخدم المعجميون العرب الأُوَل، مصطلح النبر في دلالة الهمز، وارتفاع الصوت في الكلام، إذ جاء عندهم: النبر بالكلام: الهمز[٢]. و كل شيء مرتفع فهو منبور، ومن ذاك المنبر الذي يعلو الإمام، ونبر الحرف ينبره: همزة. وأما في قول الخليل في مخرج الهمزة: " وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوقة مضغوطة"[٣]، فزيادة لمعنى الهت والضغط في الهمز على معنى ارتفاع الصوت في النبر.

وتبين الدراسات اللسانية الحديثة المقاربة الشديدة للسانين القدماء في تحديد المصطلح إذ أن النبر ضغط على مقطع من المفردة، حتى يكون بارزاً واوضحاً في السمع من غيره[٤].

وعند ابن سينا (ت: ٤٢٨هـ) إنما الهمز: "حفز قوي في الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير"[١] فما التوتر الحاصل في الصدر إلا لسبب التصاق الوترين الصوتيين التصاقا

---

(١) ينظر: الكشّاف، الزّمخشري ٤/٣٢٤.

(٢) العين، الخليل مادة (ن ب ر)، ٨/٢٦٩.

(٣) العين، الخليل ١/٥٢.

(٤) ينظر: التطور اللغوي، برجشتراسر (١٨٨٦-١٩٣٢)، ترجمة: رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص: ٧١، ٧٢.

تاما، يمر النفس بعد انفتاحهما، فتنشأُ عنه ذبذبة كبيرة تكون سبباً في وضاحة الصوت ومنه المقطع[٢].

ويخضع النبر في قواعد التشكيل الصوتي إلى نوعين: صرفي ودلالي، فالأول: يعمد مبدأ الوضوح والبروز، والارتكاز على المقاطع، والثاني: نبر دلالي، وهو نبر السياق الذي يقع فيه النبر على أي مقطع في المجموعة الكلامية دون النظر إلى محله في التقدم والتأخير، على نقيض الصرفي الذي يقع على مقطع معين ولا تتعدى المسافة.

وتشير بعض المصنفات اللسانية الغربية الحديثة إلى أن العرب لم يتناولوا النبر في الدرس الصوتي الدلالي، وإنما أعطوه الشيء اليسير من الدلالة المعنويه [٣]، لكن الكثير من المحدثين العرب أصرَّ أن القرّاء قد ضمّنوه في الأداء القرآني، بشكل واضح[٤].

وتتلخص دلالة النبر في كشف الدلالة السياقية للمفردة المنبورة وإظهار الفرق الدلالي لهذه المفردة عن نظيراتها في هذا التركيب الحاوي لها، فكثير ما يعمد المتكلم إلى نبر مفردة معينة دون غيرها رغبة منه في تأكيدها، أو للتلميح إلى دلالة معينة يقصدها.

٢- دلالة النبر عند القراء

يختلف القرّاء في أداء المفردات القرآنية، على اتّحاد أصواتها، لفظاً ورسماً، وعلى حسب درجة فهم معانيها وأصولها، وتوافر الذّوق، وحساسية الأذن، لذا يجب مراعاة هذا كلّه، عند الأداء. وكثيرٌ ما يخطئ بعضهم في الأداء، فيخرج المعنى عمّا كان فرضاً توقّعه، لمجانبتهم سلامة النّطق؛ فمن ذاك قراءة قوله تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:

(١) رسالة أسباب حدوث الحروف: ابن سينا الشيخ الرئيس ابو علي الحسين (ت: ٤٢٨هـ) تحقيق: محمد حسان الطيان، ويحي ميرعلم، تقديم و مراجعة: شاكر الفحام، واحمد واحمد راتب النفاخ، دمشق، مطبوعات المجمع اللغوي، ط١، ١٩٨٣م، ص: ٧٢.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية، ابراهيم انبس: صك١٧١.والقرآت القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، وعبد الصبور شاهين، القاهرة، مكتبة الخانجي، (د/ط)، (د/ت)، ص: ٢٥

(٣) ينظر: التطور اللغوي للغة العربية، برجشتراسر ص: ٧٢

(٤) ينظر: إبراهيم أنيس: المرجع نفسه، ص: ١٧٢.

١٦]، إنّ قواعد النّبر في العربية تلزم القارئ أن يتّكئ على القاف إذ انتقل إليها النّبر[١]:

فَ + قَ + سَتْ: "cv"+"cv"+"cvc".

فاللّطيفة أنّ انتقال النّبر إلى المقطع الأوّل، بالاتّكاء على الفاء، يخرج الفعل والمعنى معاً، عن دلالة المرادة في الآية، ويكون من الفعل (فَقَسَ)، لا من (فَ+قسا).

ونظيره ما جاء في القصص، من قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤]. كثيرٌ من لا يحقّق مطّ ألف القصر، فيغير المقطع الأخير، من: (فَ+سَ+قى): ("cv"+"cv"+"cvv")، إلى: (فَ+سَ+قَ): ("cv"+"cv"+"cv")، ويتغيّر النّبر الّذي يكون على المقطع الأخير[٢]؛ وينعكس هذا كلّه على الدّلالة، إذ يحوّل الفعل من (ف+سقى) إلى (فَسَقَ).

ويكون الحذر–على هذا– في قراءة قوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، فالفعل من (وَقَعَ)، لا من (فَقَعَ)، وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ﴾ [المائدة: ٥٢] فالفعل من (أرى) لا من (فتر)، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ [الحج: ٢] الّذي لا يكون الفعل فيه من (وتر).

إنّ الغالب في أخطاء القراءة، فيما يخص النّبر، اختلاس الحركات الطّويلة وتحويلها إلى نظائرها القصيرة، والّذي يخلّ بالمعنى دون أيّ شكٍّ، فيلتبس المعنى عند السّامع، على حين أنّ دلالة الآية على غير ذلك تماماً. وقد تختلف الدّلالة، عند تباين المفردات القرآنية المنبورة في الآية الواحدة؛ فالنّبر بوظيفته الدّلالية يحدّد المعنى المراد، الّذي يسوقه القارئ في أداءٍ معينٍ[٣]. لذا كان بدّاً توخي الحذر، عند القرّاء لموافقة القراءة، للظّواهر التّفسيرية، أو التّأويلية للقرآن الكريم؛ وقد يفسّر النّبر بعض الظّواهر الدّلالية، لبعض

(١) ينظر: مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان: ص: ١٩٥، ١٩٦. وظواهر التّشكيل الصّوتي عند النّحاة واللّغويين حتّى القرن الثّالث الهجري، المهدي بوروبة ص: ١٠٢، ١٠٣.

(٢) ينظر: المصدران والصّفحات.

(٣) ينظر: مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان ص: ١٩٨.

القراءات، فيكون سبباً مباشراً لسلوك القرّاء أداءً معيّناً؛ من ذاك ما أورده ابن جنيّ من قراءة الحسن البصري (ت:١١٠هـ): ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] فزيادة الواو لزيادة الإغلاظ والوعيد، بعد التمكين للصّوت واعتماده، وزيادة إشباعه، بالنّبر عليه(١).

٣- **دلالة التّنغيم في القرآن**

إنّ ما يمكن رصده في مصنّفات فنّ التّجويد، مواقع التّنغيم في الآي، وما يطرأ على ذلك من دلالةٍ صوتيةٍ، غير مقرّرةٍ في رسم المصحف الشّريف، والّتي لا يمكن لأحدٍ أخذها على كامل وجهها، إلاّ مشافهةً من مجيدي أهل صنعة التّجويد والقراءات، لما لها من وعورة الخطر، وما تأتي به القراءة من الخطل والزّلل.

ولكنّ كلّ ذلك محفوظٌ مرسومٌ بنصّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] من جهةٍ، ومن أخرى تواتر القراءة السّليمة، عند شيوخ هذا الفنّ العجيب بحفظ كلّ تلك الظّواهر الصّوتية، التّي لا يحملها الرّسم القرآني

إنّ القرآن الكريم النّصّ المثالي الأوحد، الّذي يحفظ مراتب الدّلالة الصّوتيّة المترتّبة عن تنغيماته، الّتي توضّح معالم المعنى في الآي؛ من موافقة الآي لأجوائها، وتغيير أنماط الكلام، دون قرائن لغويةٍ دالّةٍ على ذلك، وبالقرائن ذاتها أيضاً، ومخالفة هذه التّنغيمات لظاهر الآي وموافقتها إيّاه، وتقرير المعاني غير المتوقّعة، وتحديد البنى العميقة الّتي لا يمكن كشفها إلاّ بها، وتحديدها للتّوزيع الدّلالي للآي، ووحدتها لمعانٍ متعدّدةٍ فيها.

أ- موافقة التّنغيم لأجواء الآي: ذكر كثيرٌ من المتقدّمين ضرورة إتّباع القارئ المجيد لمعنى الآية، وجوب إتّباع التّنغيم، للدّلالة الخاصّة بالآي، وإنزالها حسب ما جيء من معنىً لذلك، فالوعد بنغم التّشويق، والوعيد بالتّخويف، والإنذار بالشّدّة والهدّة؛ والقارئ يستثمر هذا، لاستنطاق التّنغيمات للدّلالة المرجوّة في الآي.

---

(١) ينظر: المحتسب في تبين وجوه شواذّ القرآت والإيضاح عنها، ابن جنّي، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، ٣٧٠/١.

إنّ التّنغيم المبكي في الآي سببٌ لذلك؛ كآي الاستغفار والتّوبة، وغيرها من أهول القيامة. وأمّا تنغيم آي التّشريع، والفقه والجهاد، وغير ذلك، فيختلف اختلافاً تامّاً ليكون المفاد من القراءة، مستقرّاً في ذهن السّامع وقلبه؛ فاللّين غير الشّدّة، والأمر والنّهي غير الدّعاء والالتماس، والخبر غير الاستفهام، والوعد غير الوعيد(١).

ب- تغيير نمط الكلام دون القرينة الصّوتيّة في الآي: يرد التّعبير القرآني على هذه السّبيل، من تغيير أنماط الآي، دون ذكر القرائن اللّغويّة الدّالّة على هذا التّغيير الصّوتي الدّلالي؛ من ذاك قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]. إذ ذهب الفرّاء إلى أنّ التّقدير: "**أو من ذريتي؟** "(٢)، على حذف همز الاستفهام.

ونظيره ما أقرّه الأخفش (ت: ٢١٥هـ) في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ ﴾ [الشعراء: ٢٢]. على تقدير: "أو تلك نعمة تمنّها عليّ"(٣)؛ وتبين من الآيتين أنّ التّنغيم غيرّ نمط الكلام من الإخبار إلى الإنشاء، دون الحاجة إلى القرينة الصّوتيّة الدّالة على ذلك.

ت- تغيير نمط الكلام بالقرينة الصّوتيّة في الآي: يغير التّنغيم بقرينته الكلاميّة معنى"لولا"، من دلالتها على الشّرطيّة إلى دلالتها للتّخصيص، في قوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [المنافقون: ١٠]. "فلولا" بمعنى "هلاّ" الّتي للتّخصيص(٤). إذ

---

(١) ينظر: دور التّنغيم في تحديد معنى الجملة العربية، عادل علي نعامة ص: ٩٦.

(٢) ينظر: معاني القرآن، الفرّاء، تحقيق: إبراهيم شمس الدّين، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ١/ ٦٠.

(٣) ينظر: معاني القرآن، الأخفش ص: ٢٥٩.

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابها، الزّجّاج ٥/ ١٧٨. التّفسير الكبير، الرّازي: م: ١٥، ١٧/٢٩.

يجعل التّنغيم جوّ الآية لغير التّخصيص الدّال على الحثّ والإزعاج؛ فكان لجو الدّعاء[١].

ث- مخالفة التّنغيم لظاهر الآي: تعمد العربيّة كأخواتها السّاميّة الأداء الصّوتيّ، ومنه التّنغيم والترتيب على غير قول برجشتراسر[٢]؛ وقد تقرّر أنّ التّنغيم يمنح التراكيب تلويناً، يختلف معنىً من هيئةٍ إلى أخرى، فيكون التّنغيم المؤشّر الّذي يرشد الدّلالة إلى معنى التراكيب؛ من ذاك شاهد الدّهر؛ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، إذ يتبين من مظهر الآية المتضمّنة لأداة الاستفهام، أنّها تركيبٌ استفهاميٌّ للقرينة المكتوبة، ولكنّ القراءة على غير السّياق المعنوي المكتوب؛ إذ يتغير المعنى من الإنشاء الطّلبيّ، الّذي يمثّله الاستفهام في الجانب المكتوب، إلى الإخبار في جانبه المنطوق، الّذي يمثّله التّحقيق والتّوكيد، وإذ تبين أنّ "هل" بمعنى "قد"، عند النّحاة[٣] والمفسّرين[٤].

ج- موافقة التّنغيم لظاهر الآي: ويحدّد التّنغيم دون أيّ عناءٍ، تفسير بعض الآي، إذ يدرك السّامع معنى الآية دون تفسير؛ من ذاك آية الزّمر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]. فهي آيةٌ لا تحتاج أيّ إجابةٍ؛ وقد تبين غرض النّص بعد أن كانت القرينة الصّوتيّة لهيئة الاستفهام، فتحوّلت إلى النّفي[٥].

ح- تقرير التّنغيم لمعانٍ غير متوقّعة للآي: تبين أيضاً، أنّ التّنغيم يقرّر معنىً غير متوقّعٍ في الجانب المكتوب، ويغيّر نمطاً طلبيّاً إلى نمطٍ آخر؛ من ذاك ما جاء في التّحريم

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطّبري، ٦٧١/٢٢. وجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٦٩/٩.

(٢) ينظر: التّطور النّحوي للّغة العربية، برجشتراسر، ترجمة: رمضان عبد التّوّاب، ص: ٧٢.

(٣) ينظر: الكتاب، سيبويه ١٠٠/١.

(٤) ينظر: الكشّاف، الزّمخشري ٥١٢/٤. والتّفسير الكبير، الرّازي م: ١٥، ٢٢٠/٣٠.

(٥) ينظر: أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، البيضاوي ٥/ ٣٨. ومحاسن التّأويل، القاسمي: ٥١٣١/١٤.

من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١]، إذ تقرّر أنّ الاستفهام ههنا إنكارٌ والإنكار منه تعالى نهيٌ بعد كراهة تحريم الحلال إن لم يحُرّم بنصٍّ شرعيٍّ إلهيٍّ[(١)]، ويحيلنا التّنغيم إلى أنّ الخطاب ليس بطريق العتاب، وإنّما بطريق التّنبيه تشريفاً للنّبي ﷺ وتنزيهاً له عن هذا[(٢)].

٣- دلالة المفصل الصّوتي في القرآن:

قليلٌ ما نصادف في المصنّفات تعرّض اللّسانين المحدثين العرب لهذا الباب، لا دراسةً ولا تحليلاً ولا دلالةً؛ فقد فل عنه الدّارسون دون أيّ تسويغٍ علميٍّ لذلك لمشابهة الظّواهر الصّوتية له؛ وهو على هذا القدر من المزيّة اللّغوية الّتي لا تحصل، إلاّ بتفحّص هذه الخاصيّة الصّوتية المنفردة، في الظّواهر الأدائية. فالمفصل أو الانتقال"transition"في التّشكيل الصّوتي، سكتةٌ خفيفةٌ بين المقاطع والمفردات في الكلام لغرضٍ دلاليٍّ؛ ويُتعرَّفُ به على مكان انتهاء لفظٍ ما، أو مقطعٍ صوتيٍّ ما، وبداية آخر، ويرى بعضهم أنّ هذه الوقفة لا تؤثّر في الدّلالة، كالّتي عند اختلاف القيم الخلافية" les valeurs de la dissimilation" للصّوامت والصّوائت، وعند اختلاف التّنغيم[(٣)].

وتشير بعض المصنّفات اللّسانية الغربية الحديثة إلى أنّ العرب لم يتناولوا المفصل الصّوتي، في الدّرس الصّوتي الدّلالي، وإنّما أعطوه الشّيء اليسير من الدّلالة المعنويّة[(٤)]. لكنّ الكثير من المحدثين العرب أصرّ أنّ القرّاء قد ضمّنوه في الأداء القرآني، بشكلٍ واضحٍ[(٥)].

---

(١) ينظر: التّفسير الكبير، الرّازي م: ١٥، ٣٠/٣٨، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/١٠١.

(٢) ينظر: الرّازي: المصدر نفسه والصفحة.

(٣) ينظر: أسس علم اللّغة، ماريو باي: ترجمة: أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، ط٨، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص: ٩٢.

(٤) ينظر: التّطور اللغوي للّغة العربية، برجشتراسر ص: ٧٢.

(٥) ينظر: الأصوات اللّغوية، إبراهيم أنيس، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصريّة، ط٤، ١٩٧١م، ص: ١٧٢.

هذا؛ وتبين من رواية السّيوطي عن الشّعبيّ (ت: ١٠٣هـ) في عدم جواز الوقف، عند قوله تعالى[١]: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. دون وصلها بقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] فمن البديهة البلاغيّة والدّلاليّة أنّ الكلام إذا تعلّق بما بعده لا يوقف عليه؛ وهو من صنف القبيح المتروك، وإن يكن كذلك، فعلى الخيار في الوقف عليه؛ وهو من صنف التّامّ المختار[٢].

وعلى هذا تبين أن دلالة المفصل الصّوتي مقترنة بالوقوف والابتداء؛ إذ رصد علماء التّجويد مزيّة الوقوف، وبيّنوا معا لم الدّلالة فيها؛ وهو ما بقول به أبو بكر الأنباري (ت: ٣٢٨هـ): ". . . يوضّح كيف وأين يجب أن ينتهي القارئ لآي القرآن الكريم، لما يتّفق مع وجوه التفّسير، واستقامة المعنى، وصحّة اللّغة، وما تقتضيه علومها من نحوٍ وصرفٍ ولغةٍ، حتّى يستتمّ القارئ العرض كلّه من قراءته، فلا يخرج على وجه مناسب من التّفسير، والمعنى من جهة ولا يخالف وجوه اللّغة، وسبل أدائها الّتي تعِينُ على أداء ذلك التّفسير والمعنى، وبهذا يتحقّق الغرض الّذي من أجله يقرأ القرآن، ألا وهو الفهم والإدراك، فإذا ما استطاع القارئ أن يفعل ذلك، وتمكنّ من مراعاته في وقفه عند نهاية العبارة، فإنّه لا شكّ سوف يبدأ العبارة على النّحو الّذي توفر له في وقفه، فهو لا يبدأ إلاّ من حيث يتمّ به المعنى من جهة، وبما لا يباين اللّغة وعلومها من جهة أخرى، وهو ما حرصت عليه العرب في أداء عبارتها، واهتمّت له في كلامها شعره ونثره"[٣] وقد أدرك القرّاء أهمّية ارتباط الوقف بالمعنى، إذ يتوافق علاقة النّغم بالتركيب، على حسب نوع الوقوف الّتي استقرأها القرّاء، وبيّنوها في مصنّفاتهم، إذ نجدهم يدلّون على نوع الوقف،

---

(١) ينظر: السيوطي: المصدر نفسه، ١/٢٣١.

(٢) ينظر: الصّوت اللّغوي في القرآن، محمّد حسين الصّغير، موسوعة الدّراسات القرآنية، رقم: ٠٢، في الموقع: www. rafed. net/books/olom،quran/al،saut/10. html#29، ص: ١٠٦.

(٣) مقدّمة كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله تعالى، الأنباري أبو بكر: تحقيق: محيّي الدّين عبد الرّحمن رمضان، دمشق، المجمع اللّغوي، (د/ط) ١٣٩٠هـ،١٩٧١م، ١/٢١، ٢٢.

ثمّ يحدّدون التركيب، ثمّ التّدليل على معنى التّنغيم؛ من ذاك الّذي أشار إليه ابن الجزري في أنواع الوقوف(١).

الخاتمة:

يمكن حصر نتائج العمل في نقاط مختصرة لأن العينات كانت محدودة نظرا لعدد الصفحات المطلوبة وهي:

* الملاحظ في دلالة المقاطع أنّ ما كان فيها المدّ دليلٌ على قبيله في المعنى، وهو الطّول في الغرض الّذي جيء بالآية والفاصلة له، وهو المتوافر في المقطع الثّاني والرّابع والسّادس، أحدها أرفع درجةً من الآخر حسب طول الحركة الممطولة، وما كان بالمقطع من حركةٍ قصيرةٍ فدليلٌ على الانقطاع والتّقطّع وهو متوافرٌ في المقطع الثّالث والخامس، والأخير أزيد دلالةً من الأوّل لزيادة صامتٍ آخر فيه.

يتوقّف مصير كثيرٌ من استنباطات الأدلّة الشّرعيّة على الوقف والابتداء إذ تترتّب على هذا الفنّ فوائدٌ جمّةٌ، وتتبين معاني الآي وبه يُؤْمَنُ الوقوع في الأخطاء، وتُحفظ الأحكام، بمختلف أنواعها: العقدية، والشّرعية الفقهية، والمعاملات والأخلاق، وغيرها من مصالح البلاد والعباد.

هذه محاولة لفهم النص وفق مظاهر صوتية وقد أغفلت من مداخلتي جوانب الوقف والابتداء لأن الاختصار اضر بالمقصود والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) ينظر: النّشر في القرآت العشر، ابن الجزري: لبنان، بيروت، دار الكتب العلميّة، (د/ط)، (د/ت)، ١/٢٢٥ – ٢٣٠.

المصادر والمراجع

الإتقان في علوم القرآن: السيّوطي: تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة التراث، (د/ط)، (د/ت).

أسس علم اللّغة، ماريو باي: ترجمة: أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، ط٨، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

الأسلوب والأداء في القراءات القرآنية دراسة صوتية تباينية: خيرالدين سيب، دار الكلم الطيب دمشق سوريا ط١، ٢٠٠٨.

الاشتقاق ابن دريد: تحقيق: عبد السّلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط١،١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

الألسنية العربية ريمون: الطّحّان، بيروت، دار الكتاب اللّبناني، ط٢،١٩٨١م.

البحر المحيط: أبو حيّان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

البناء التّشكيلي للفواصل القرآنية وأثره في الدّلالة: محمّد نجيب مغني صنديد: رسالة ماجستير؛ إشراف: أ. د: خير الدّين سيب، الجزائر، جامعة تلمسان، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

التّبيان في إعراب القرآن: العكبري، مركز البحوث والدّراسات، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٧م.

التّحرير والتّنوير: محمد الطاهر بن عاشور: تونس، دار التّونسية للنّشر، (د/ط)، ١٩٨٤م.

التّصوير الفنّي في القرآن: سيد قطب، بيروت، دار الشّروق، ط٨، ١٩٨٣م

تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، متضمّن تحقيقات محمّد نصر الدّين الألباني، القاهرة، مكتبة الصّفا، ط١، ٢٠٠٤م.

تهذيب اللغة: الأزهري، تحقيق: عبد السّلام هارون، القاهرة، الدّار المصرية للتّأليف والتّرجمة، (د/ط)، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان: السّعدي عبد الرّحمن بن ناصر، تحقيق: محمّد فتحي السّيّد، ومصطفى الشّتّات، القاهرة، المكتبة التّوفيقية، (د/ط)، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

جامع البيان عن تأويل البيان: الطّبري، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التّركي، القاهرة، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م

الجوانب الصّوتية في كتب الاحتجاج للقراءات: عبد البديع النّيرباني: سورية- دمشق- دار الغوثاني للدّراسات القرآنية- ط١-١٤٢٨هـ/٢٠٠٦م.

الخصائص: ابن جني، تحقيق: محمّد علي النّجّار، المكتبة العلمية، (د/ط)، (د/ت).

شرح الهداية: المهدوي: تحقيق: حازم سعيد حيدر، الرّياض، مكتبة الرّشد، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

الصّوتيات عند ابن جنّي في ضوء الدّراسات اللّغوية المعاصرة: وعبد الفتاح المصري، مجلة التّراث العربي، سورية، ١٥رجب/١٦شوال ١٤٠٤هـ الموافق لأبريل/يوليو ١٩٨٤م، السّنة الرّابعة، ص٢٤٣.

ظواهر التّشكيل الصّوتي عند النّحاة واللّغويين حتّى القرن الثّالث الهجري: المهدي بوروبة: رسالة قدّمها لنيل شهادة الدّكتوراه، إشراف: زبير درّاقي، الجزائر، جامعة تلمسان، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

العربية مبناها ومعناها: تمّام حسّان، الدّار البيضاء، دار الثّقافة، ط١، ١٩٩٤م

فتح القدير- الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير: الشّوكاني، بيروت، دار الأرقم، (د/ط)، (د/ت).

فقه اللغة وخصائص العربية: محمد المبارك، بيروت، دار الفكر، (د/ط)، ١٤٢٥هـ /٢٠٠٥م.

في ظلال القرآن: سيّد قطب، بيروت، دار الشّروق، ط١٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

قواعد تشاكل النّغم في موسيقى القرآن: نعيم اليافي مقال نشر في الموقع: http: //www. awu-dam. org/trath/15-16/turath15-16-007. htm

مشاهد يوم القيامة: سيّد قطب، القاهرة، دار الشّروق، ط١٦، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

معاني القرآن وإعرابه: الزّجاج، تحقيق: عبده شلبي، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

معاني القرآن، الفرّاء، تحقيق: إبراهيم شمس الدّين، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

المنهج الصّوتي في البنية العربية: عبد الصّبور شاهين، القاهرة، مؤسّسة الرّسالة، (د/ط)، (د/ت).

النّشر في القراءات العشر: ابن الجزري، بيروت، دار الكتب العلميّة، (د/ط)، (د/ت).

p121. RRK and storke Fc London1972-dictionary of language and linguisticsHartmann.